الإسلام والعلمانية بين افتراق الأسس واكراهات التلفيق

عامر كاظم الدفاعي

السنة الثالثة ـ العدد العاشر

ان الحديث عن افتراق الاسس بين الاسلام والعلمانية لايفضي بأي حال من الاحوال، بالابتعاد عن أي شكل من اشكال الحوار الثقافي الهادئ ،الذي يبنى على اليات المثاقفة والتلاقح الثقافي، والانفتاح على التجربة البشرية بكل ارهاصاتها ،لكي يتسنى لنا خلق صيرورة ثقافية تأخذ على عاتقها تقديم قراءات ثقافية جديدة ،غير مقطوعة الجذور عن الموروث الثقافي ،ولا تتسم بالجزمية والقطعية ،وربما ستكون ﴿القراءات الجديدة للدين﴾ قراءات مقبولة والسبيل لسلامة الفكر الديني من التقادم وتنميته في العالم المعاصر.

ولايمكن لنا ان ننكر ان الافكار والمفاهيم تتلاقح عبر علاقة تثاقفية ومن ثم تدخل في صراع مع الخزين المعرفي للامة ومع بنيتها الثقافية لتخلق صيرورة بعد فلترتها عبر الاطار المعرفي الذي يتصدى بالمنع من دخول الافكار الشاذة التي لاتنسجم مع مكونات المخزون المعرفي وتتقاطع معه.

وكذلك ان الحديث عن افتراق الاسس ﴿بين الاسلام والعلمانية﴾ لايعني بالضرورة التمترس بطريقة احترابية ،تنبأ بالموقف العدائي والمتشنج عن كل ما هو غير اسلامي يتسم بالاختلاف والمغايرة.

ولا نسمح لانفسنا بالحديث بطريقة التكفير والتخوين، والدوغمائية الايديولوجية التي تفصح عن صرامة فكرية،لاتطأطأ رأسها لاي مراجعة نقدية ، ولايمكن لها ان تستجيب لاي تغير يحدث في الواقع الموضوعي.

ولاتعني كذلك بالمثاقفة والتلاقح الثقافي ،هو اسقاط المقولات الغربية عن الفكر الاسلامي لمجرد ان تلك المقولات حديثة ،ولكن المقصود هو الاستفادة من مناهج البحث الحديث والاستنارة بها،وتطبيقها تطبيقاً الياً .وعلينا ان نستوعب مكتسبات الثقافة استيعاباً نقدياً ،لا ان نرددها ترديداً ببغاوياً بدون ان نتفحصها بطريقة نقدية، ولايمكن للمثاقفة والتلاقح الثقافي ان يعطينا من ان نسجل مواطن

الافتراق والتقاء في فضاءات ثقافية ذو تمويل معرفي مختلف، حتى ولو كان لها نقاط التقاء على مستوى المعطيات .

وعندما نقول بأفتراق الأسس بين الإسلام والعلمانية ،نعني ان كل منها يقدم رؤية للحياة تختلف عن الاخر على مستوى الافكار والدوافع والموجهات الثقافية .

حيث على مستوى الافكار،ان الاسلام يقدم رؤيته للحياة عبر موجهات نصية ﴿القرآن ..والسنة﴾، ويسعى المشروع الاسلامي الى خلق انسجام وتوافق مابين النص والواقع، حتى لاتبقى التشريعات الاسلامية مجرد﴿طوباوية حالمة﴾معلقة في فضاء التجريد، وان تلك الموجهات هي الوسيط الذي نطل للعالم من خلاله، والذي يمكن لنا من خلال فهمنا لذلك النص ،ان نحدد علاقتنا بما يحيط بنا، أي علاقتنا بالانسان والطبيعة ،ولايمكن لنا ان نجعل ذلك النص وسيط في عملية الفهم، مالم يكن لدينا شئ من الاطمئنان النفسي والثقة بمصدر النص ﴿الناص﴾ "فالفعل النصي يشيد تصوراته عن العالم في ظل مبدأين :احدهما الثقة بالناص وثانيهما: الجانب غير المفهوم ولا المعقلن عن العالم"﴿١﴾

وفاعلية العقل النصي تكمن في خلق علاقة جدلية مع الواقع لها القدرة على استيعاب كل متغيرات ذلك الواقع من خلال فضاءات تأويلية مفتوحة، ومناهج اجتهادية ذات طابع عقلاني متباينة في فهم النص والواقع والقدرة العالية على فك شفرة ذلك النص.

ولكن هذا لايعني ان الفضاء التأويلي المفتوح والتيارات الاجتهادية المتباينة، فاقدة لاي مرتكز دلالي تحدد الدائرة الدلالية لمقصديات الدين واهدافه وغاياته، اذن النص هو الموجه المعرفي ومنتج للقيمة المعرفية والاخلاقية في الاسلام، اما العلمانية "فانها تقوم في المقام الاول على مبدأ اسبقية العقل على النص"﴿٢﴾.

وهذا يعني ان العقل هو المرتكز الاساسي والمرجع النهائي والوحيد في فهم العالم وفهم الواقع، وانتاج القيم والمعرفة ،نتيجة طبيعته المحايثه للواقع، وعدم مفارقته وتعاليمه عن الواقع كما هو الحال في الغيب منتج النص الديني ،مما تخلق تلك المحايثه فهما يتسم بالمرونة والانفتاح، وقابلية المراجعةوفقاً لمعطيات الواقع المتحركة والسيالة حسب متغيرات ذلك الواقع .

وما يمنح العقل قدرة اكبر على استيعاب الواقع "لان بناءاته قائمه على المعرفة ومرور الزمان يساعد في التراكم المعرفي ،مما يمنح العقل تحسن في اداه"﴿٣﴾.

ورغم ان الارتهان للمعطيات العقليه يفقد الارتكاز الدلالي، نتيجة لمرونة المعرفة العقلية، حيث تفقد المقولات العقلية قدرتها على الثبات والمطاولة لما تختزنه من تجديد وسيولة، مما تفضي بشكل حتمي الى الافكار عدمية "افكار مابعد الحداثة"تتسم بالارنزياح الدلالي المستمر وغير منضبطه بمقولات معرفية تضبط ايقاعها المعرفي والدلالي حيث يتشظى المعنى وتغيب الوحدة المرجعية المشتركه.

ان الابستمي ﴿على حد تعبير فوكو﴾ الثقافي الذي سبق ورافق انبثاق الفكر العلماني ينبأ بأن العالم يتجه وبطريقه قسريه، وحتميات متصاعده، نحو نفض الايادي من كل المرتكزات الدينية والموجهات المعرفية للثقافة الدينية للحياة، لصالح رؤية مادية وهرية، ابتداء "من كل ماهو محسوس ومعقول"عند كانت وانتهاءاً "بموت الله" عند نيتشه.

وكذلك الحال عند فلسفة التاريخ عند هيجل التي "تتأسس على ضرب من الحركة التصاعدية لمسار حركة الوعي والروح ،تتناسب مع الخط التواتري المتلاحق لحركة الزمن حيث ينفصل الحاضر عن الماضي ويتجه سهماً نحو المستقبل وكلما تقدمت حركة الزمن واكبها ارتقاء في مسار الوعي"﴿٤﴾.

وكذلك افكار اوجست كونت الوضعية وقانون الحالات الثلاث التي تفسر الانتقال التاريخي من الحقبة الاسطورية الغيبية الى الحقبة الميتافيزيقية ليحط

الرحال بها الى الفكر المادي التي اسماها بالحقبة المادية وهذا الارتقاء التحقيبي هو ارتقاء قهري ينتهي الامر بالوعي الى التخلص من عوالقه الغيبية.

وهكذا نشأ الفكر العلماني في ظل افكار الحداثه ومنظريها التي هيمنت فيها افكار ماركس التي تقول بالانتقال الحتمي الى الفكر المادي في نظريته المعروفة بالنظرية المادية وكذلك افكار ماكس فيبر وصرخته المدوية من "نزع الطابع السحري عن العالم"التي لاتكتفي بأقصاء فكرة الله والغيب فقط عن الوعي والثقافة والتطورات "بقدر ما تعمل على تغييب الدين يشكل منهجي ومتلاحق في مختلف مناحي المجتمع ومؤسساته الحيوية من الاقتصاد والسياسة ومن التشريع والفن"﴿٥﴾.

أي تغيب كل ما تبقى من ظل الاله من هذا العالم "حسب نيتشه"هذه البينه الثقافية وتطوراتها كانت الحاضن الذي انتج افكار العلمانية والحداثة،بعد صراع واشتباك معرفي مع الفكر اللاهوتي الكنيسي الذي كان سائد.

فمن غير الممكن ان نأخذ بالعلمانية كأجراء عملي من دون النظر الى المناخ الثقافي الذي رافق ظهور وتطور حركة الوعي والمفاهيم العلمانية ،والامر الاخر ان الفكر الكنيسي لم يأتي بمنظومة تقافية دينية تنظم الحياة الاجتماعية بكل تفاصيلها بل كانت تعاليمها مقتصرة على "نزعة طهورية وزهدية ترى في المادي والدنيوي رمز السقوط والخطيئة الاصلية "﴿٦﴾.

التي يكون الدين فيها ماهو الا نزوع باطني ذات توجهات مفرطه في الزهدية السلبية، المنعزلة عن حركة التاريخ والعالم ،وهموم الناس الضرورية والانية .

واي اهتمام بالاتي والوجودي في نظر الكنيسه ما هو الا انغماس في الدنيوي والوقوع في حباله،الذي يمثل ابتعاد عن الروحانية العالية التي تظمن الخلاص من الشرور المتعلق بكل ماهو مادي دنيوي.

هذه المناخات الثقافية التي تسير وفق ايقاع تصاعدي حتمي، متجه صوب نهايات لامحيد عنها تمثلت تلك النهايات بأفكار علمانية كانت مشحونه بالصراع الدموي والتمترس الايدلوجي، الى درجة فقدان القدرة على التعايش السلمي.

كل هذا جعل من الاطراف المتصارعة والمتناحرة دينياً ومذهبياً وعرقياً تقبل بالعلمانية كاجراء عملي لابد منه حتى تتمكن من الابتعاد عن التخندقات الفئوية ونبذ كل ماهو دموي ووحشي.

كل هذه المناخات الثقافية والاقتتال الديني ومحاكم التفتيش رافقت ظهور الفكر العلماني والحداثي الذي يعني بأختصار "احلال القيم الوضعية والدنيوية بديلا عن فكرة التعالي وتستند الى تصور دهري محايث ،وترى في العالم المادي الدنيوي مصدر مطلقاً للقيمة والمعنى".

وفي الاسلام الامر مختلف جداً حيث قدم الاسلام نصوص شرعية جاءت كقوانين لتنظيم حركة الاجتماع الانساني حيث يتشابك فيها الديني والدنيوي ،ولم تكن النصوص الاسلامية عبارة عن وصفات طقوسية مسكونه بوجهة خلاصية تنأى بنفسها عن كل ماهو دنيوي ،وترذل وتحتقر ذلك الدنيوي"على حد تعبير نيتشه".

بل ان الاسلام قدم خطاباً تنويرياً رصد فيه حركة التاريخ وتمفصل معها من خلال نصوص اشتبكت مع الواقع وتأويلات لتلك النصوص تعيد الاشتباك مع الواقع واجتهادات عقلية تتمفصل مع الواقع وتستوعب كل متغيراته، اتنتج احكام شرعية تنسجم مع تلك المتغيرات، وذلك عبر تجديد ادوات الاشتغال الاجتهادي ،ومنهج الاجتهاد الفقهي "ولابد من النظر الى الشريعة بحسب مقاصدها وهذا يقتضي البحث فيها ــ خارج دائرة العبادات ــ على اساس المقاصد، وعدم ابتعاد الفقه عن حركة المجتمع"﴿٧﴾.

وان الحركة الاجتهادية بالاتساق مع الاختلافات التأويلية لنصوص الشريعة تعطي للفقه المرونه للانعتاق من قبضة الركون الى التوقف عن لحظات تاريخية واشتراطاتها المرحلية، وعبر انفتاح النص على الدنيوي والتشابك معه ليقع ضمن دائرة اهتمام ذلك النص بنفس المقدار والاهمية من الاهتمام الاخروي الديني "وان الديني لايتحدد في موقع حصري محدد فكذا هو الامر لما يسمى بالزمني والعلماني الذي لايمكن ضبط حدوده عن هوية الديني"[٨].

ان حلقة الاشتباك المتلازمة بين الديني والدنيوي تفضي الى عدم التفريط بالدعم الوجودي لصالح التهجد والتعبد،ولعل حديث الامام علي عليه السلام "اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ،واعمل لاخرتك كأنك تموت غداً"رسم خارطة الاشتباك والتلازم مابين الديني والدنيوي.

ماندركه من هذا ان الاسلام لم يكن في يوم من الايام دين الممارسات الطقوسية التي تمارس مع اشعال الابخرة والشموع داخل اروقة المعابد المغلقه، والامر مختلف مع الاسلام حيث ان الاسلام اقام نوع من الصلة الوثيقة بين الديني والدنيوي من خلال تأكيد النصوص على الالتصاق "الدين بعالم الغيب من جهة التشديد على مصدره الالهي".

الا ان صلته بالغيب لاتنفي عن وجود مسالك واهتمام دنيوي للدين .

ربما صار واضحاً ان افتراق الاسس بين الاسلام والعلمانية تكمن في الموجهات الثقافية لكل منهما ،وكذلك لم تمر الثقافة الاسلامية بنفس المخاضات التي جاءت منها العلمانية وأشتد عودها ،هناك بعض الافتراقات لايسع لها المجال الآن ولكن الامر المهم الذي تريد ان نذكره انه ليس من الصحيح اختزال العلمانية بفصل الدين عن الدولة كما يردد بأستمرار ،بل هي تشريع للحياة بكل مناحيها...

المصادر

١. حيدر حب الله ،نصوص معاصره :الاتجاهات العقلانية في الكلام الاسلامي :دار الهادي:ص١٣.
٢. عادل طاهر ـ اسس الفلسفة العلمانية ـ دار الساقي ـ ص٥.
٣. حيدر حب الله ـ مصدر سابق ص١٣.
٤. في العلمانية والدين والديمقراطية ـ رفيق عبد السلام ـ ص٦٧.
٥. رفيق عبد السلام ـ مصدر سابق ص٦٧.
٦. رفيق عبد السلام ـ مصدر سابق ص١٣٠
٧. محمد مهدي شمس الدين ـ الاجتهاد المقاصدي ـ قضايا اسلامية معاصرة ـ دار الهادي ـ ص١٨.
٨. رفيق عبد السلام ـ مصدر سابق.